

جدل حول :

الخوارج وقضية التحكيم

دكتور محمود اسماعيل عبد الرازق

مدرس بكلية الآداب — جامعة عين شمس

يمثل الخوارج في نظر مؤرخي الفرق الإسلامية كل من خالف أو خرج على الخلفاء والأئمة سواء في عصر الراشدين أو في المصور التالية (١) ؛ باعتبارهم مارقين على رأى الجماعة الإسلامية التي اتفقت على اختيارهم . لكن هذا التفسير اللغوي لا يستقيم مع التعبير الاصطلاحي الذي يخص تلك التسمية جماعة أو فرقة إسلامية .
بمعناها ؛ أو بالأحرى حزبا سياسيا دينيا معينا ؛ فإلى جانب الخوارج وجدت جماعات وأحزاب أخرى خرجت عن طاعة الخلفاء والأئمة .

فقد اصطلح على إطلاق لفظة الخوارج على تلك الجماعة التي شابت عليا بن أبي طالب في نزاعه مع معاوية بن أبي سفيان ثم خرجت عليه إبان حادثة التحكيم للشهيرة وهي التي عرفت أيضا بالحرورية نسبة إلى كورة حروراء - بجوار الكوفة - حيث لاذت بها بعد مفارقتها إياه (٢) . وإذا كان من المحقق أن الخوارج أطلقوا على أنفسهم اسم « الثمراء » اعتقادا بأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا ، أو باعوا أنفسهم في سبيل الله (٣) فليس من السبعمد أن يكونوا هم أيضا الذين سموا أنفسهم « خوارج » - كما ذهب

(١) الفهر ستاني : الملل والنحل ص ١٠٥ .

(٢) الإسماعيليين : التبصير في الدين ص ٤٦ ، البندادي : الفرق بين الفرق ص ٧٥ .

(٣)

دوزى (١) - استنادا على قول زعيمهم عبد الله بن وهب الراسي «... فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض هذه الدائن منكرين لهذه البـدعة المضلة (التحكيم) والأحكام الجائرة» (٢) .

والدارسون يذهبون مذاهب شتى في تفسير ظهور الحوارج ، وهى فى الغالب تستند على أسس سياسية واقتصادية واجتماعية . ونحن لاننكر أهمية الدوافع الاقتصادية والاجتماعية فى إجلال غوامض التاريخ الإسلامى ، وهو أمر عول عليه كثير من المستشرقين من أمثال بارتولد ويكر وكايتانى وماسينيون وبرنارد لويش (٣) ، إلا أن الفهم الموضوعى لمصر النبوة والراشدين لا يتم دون وضع العامل الدينى فى الاعتبار . فظهور الحوارج مرتبط حقا بمسائل السياسة والحكم ، وأيضا بالتطور الاقتصادى والاجتماعى الذى عم العالم الإسلامى بعد الفتوحات ، لكن ذلك كله كان يجرى فى إطار دينى وفى مسوح إسلامى .

نفصل ذلك فنقول إن من المؤرخين من ذهب إلى أن ظهور الحوارج يعبر عن رغبة القبائل العربية من غير قریش فى إقصائها عن التثبيت بالخلافة والاستئثار بالحكم (٤) ، فالحوارج من هذه الزاوية حزب سياسى وحسب (٥) ، وحركتهم

(١) Spanish Islam, P. 39.

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج٢ ص ٢٢٤ .

(٣) انظر : Lewis, B : Some Observations on the Sgnificance of hersey in the hitovy of Islam, Studia Islamica, 1, P. 46.

(٤) Muir, W : The Galiphate; itrrise, decline and fall, P. 281.

(٥) سهر القضاوى : أدب الحوارج فى العصر الأموى ، المقدمة ، ص ٥٠ .

تمثل ثورة ديمقراطية ضد الارستقراطية التيوقراطية الجديدة من كبار المرحابة (١) فهم لذلك « جمهوريو الإسلام » (٢) « ودستوريو الإسلام » (٣) .

ومن المؤرخين (٤) من غلب المامل الاقتصادي الاجتماعي ، فأوا في ظهور الحوارج انتفاضة لعرب البادية الذين استوطنوا الكوفة والبصرة بعد الفتح الأولى فهؤلاء — وخاصة من كان منهم من قبيلة تميم — كانوا قبل الاسلام يمشون في فقر مدقع ، ولم تحسن أحوالهم كثيراً في ظل الاسلام بينما كانت القبائل الأخرى تنعم بالثراء وترفل في الترف ، فامتلات قلوبهم حقدا وغيظا ، وزاد في ثورتهم تمسكهم الشديد بالتقاليد والطبائع البدوية كأنهم نصب للقبيلة والولاء لها ، فبنضوا الحكومة السياسية وتمردوا على نمط الحياة الاجتماعية في ظلها ، فتورثهم من ثم « تمثل ثورة البدو على سيادة الدولة » (٥) .

وثمة رؤية ثالثة (٦) تجمع بين الاتجاهين السابقين ، مؤداها أن بدو تميم احتدمت بينهم فكرة الخروج على نظام الخلافة القائم ، ورغبتهم في الدعوة إلى نظام جديد للخلافة تعبر عن تطالع العرب من غير أهل الحجاز في عدم التقيد بالخضوع لقريش .

(١) انظر :

Biquet, F : Histoire de L' Afrique Septentrionale
Sous la domination musulmane. P. 35.

Smith : Op. Cit P. 279.

(٢)

(٣)

Farouhy, A : A Persian dynasty in North Africa,
The Rustumides, The Islamic Review, April, 1952.
P. 12.

(٤) راجع : محمد أبو زهرة : المذاهب الإسلامية ص ١٠٤ ، عمر أبو النصر : الحوارج

في الإسلام ص ١٨ .

Lewis : Op. cit P. 47.

(٥)

(٦) انظر : عبد المنعم مازد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج ٢ ص ١٣٥ .

لكن للملاحظ أن الخارجية لم تكن حكراً على قبيلة تميم وحدها ، صحيح أن غالبية الحوارج الأول كانوا من تميم (١) ، إنما منهم أيضاً من انتمى إلى القبائل الأخرى كبكر وهمدان والأزد وغيرها (٢) . بل وقفت بعض بطون تميم من الحوارج موقفاً عدائياً ، وبطش بعض رجالها بزعامات الحوارج من بني جلدتهم ، كعباد بن عاقمة الذي قتل أبا بلال مرداس الخارجي (٣) ، وحرموز بن الفجساء قاتل أخاه قطري أحد زعماء الأزارقة (٤) ، ومقل بن قيس الرياحي قضى على حركة المستورد ابن علفة وسفك دمه (٥) ... الخ . معنى ذلك أن نزعة العصبية عند الحوارج كانت أقل خطراً وأهون شأنًا من الرأي والمذهب (٦) ، وحسبنا دخول كثير من الموالى في مذهبهم وعملهم جنباً إلى جنب مع العرب على نصرته .

كما أن الهدف السياسي — لقائته — لم يكن محور نشاطهم وغاية مرامهم ، وفي ذلك يقول ابن خلدون (٧) « ... الحوارج للمستيتون في شأن بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رياسة ، ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبية القومية » .

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٥١٦ ، ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ١٤٥ ،
 Masqueray : Chrouique d'Abou Zakaria. P. XXXII,
 Brockelman, k : History of the Islamic People. P. 70.

(٢) ابن حزم : جبهة أنساب العرب ص ٣٦٤ ، الدينورى : الأخبار الطوالى ص ١٩٧ ،
 فلهوزن : تاريخ الدولة المرية ص ٧٨ .

(٣) ابن حزم : المرجع السابق ص ٢٠٠ .

(٤) نفسه ص ٢٠١ .

(٥) نفسه ص ١٨٩ .

(٦) طه حسين : الفتنة الكبرى ج ٢ ص ١٤٠ .

(٧) المقدمة ج ٢ ص ٦٩ .

تلك نعتقد أن للمامل الديني أثراً واضحاً في تطور تاريخ صدر الإسلام ، ذلك أن الدين والدولة إذ ذاك شيء واحد ، والجماعة السياسية انبثقت من الجماعة الدينية ، وقد فطن إلى ذلك فلهوذن حين عالج تاريخ الخوارج والشيعية باعتباره تاريخ أحزاب سياسية دينية (١) ، كذلك أ كدبرناردلوبيس (٢) أن التاريخ الإسلامي حتى العصر الأموي كان في جوهره تاريخ « حركات سياسية دينية » ، ونفس النظرة تتضح عند طه حسين (٣) في تناوله الفتنة الكبرى حيث ذكر أن « القديماء نظروا إلى جميع الأحداث التي كان منها عيب عثمان والاختلاف عليه نظرة دينية خالصة ، كما نظر إليها الذين عاصروا عثمان سواء منهم من خاصمه ومن ناصره .. » . وليس ادل على أن كافة للمشكلات السياسية في عصر الراشدين كانت ترى وفق منظور ديني من تعويل الأطراف المتنازعة على تكفير بعضها بعضاً (٤) ، وتبادلهم الانهزامات بالمرقوق والمهرطقة (٥) . فمسألة الكفر والإيمان صارت من ثم أم المسائل التي عالجها كافة الفرق الإسلامية .

ولاتزاع في أن مايجبر من خلافت داخل الجماعة الإسلامية إنما دارت حول مسألة الإمامة أو الخلافة ، خاصة وأن الرسول (ص) مات ولم يضع نظاماً ثابتاً محددًا لمن يخلفه في حكم المسلمين . ولنسنا بحاجة لمرض المشكلات التي نجمت عن

(١) وعنوان كتابه : أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام .

(٢) أنظر : أصول الإسماعيلية ، المقدمة ص ٥ .

(٣) أنظر : الفتنة الكبرى ج ١ ص ١٧٥ .

(٤) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٣ ص ٣٣٠ .

Gautier : Les siecles obscurs du Maghreb, P. 260, (٥)

Bel : Lareligion Musulmane en Berberie. Vol. 1, p. 29.

Gibb : Mohammedanism, P. 110 .

ذلك وهي مشكلات لا تنسرك أن التمرات القبلية والأطماع الشخصية كانت تفذيها .
 لكنها بوجه عام اتخذت طابعا دينيا واضحا . فقد انبرى المسلمون يتلمسون في
 القرآن والسنة معرجا ، فكثرا الجدل والتأويل ، وتمددت الآراء وتشعبت ، وزعم
 كل طرف أن وجهة نظره هي الحق . ونجم عن ذلك كله ظهور الفرق الإسلامية
 التي كان خلافاها فيما بينها « خلافا اجتهاديا في مسائل دينية ظنية » (١) ومالبت هذه
 الخلاف أن تحول إلى صراع دموي عبر عنه الشهرستاني (٢) بقوله « وأعظم خلاف
 بين الأمة خلافا الإمامة ، إذ ماسل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثلما مل
 على الإمامة » .

وتأسيسا على ذلك ، نرى أن ظهور الخوارج مرتبط بمشكلة الإمامة والاجتهاد
 حولها ، وحتى أعداؤهم نظروا إليهم نظرة من حاول الوصول إلى الحق فأخطأه (٣)
 ولم يكن بوسمهم إنكار حسن نواياهم في طلب الحق وصدق عزيمتهم في الموت دونه ،
 فلم يأخذوا عليهم أكثر من « إهمال النظر وإغفال التأمل بعين البصيرة وللبل عن
 الحجة البخنة إلى الشبهة للهلكة » (٤) . بل إن فقيها مثل ابن عباس حين جادل
 زعماء الخوارج بالزهر وإن لم يحلجهم بصحة موقف على إلا على أساس أنه «... ابن
 هم الرسول (ص) وصهره وعليهم نزل القرآن وهو أعلم بتأويله » (٥) . وشهد

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٧٨ ، ٧٩ .

(٢) اللال والنعل ج ١ ص ٢٠ .

(٣) ورد في حديث نبوي عن عبد الله بن مسعود أن « الخوارج أمة يذهبون يريدون
 الحق فيخطئونه ، يرقون من الدين كما يرق السهم من الرمية » أنظر : ابن حيون : شرح
 الأخبار ورقة ٩٨ ، ٩٩ ، مخطوط .

(٤) جعفر بن عبد السلام : إبانة المناهج في نصيحة الخوارج ، ورقة ١٥٤ ، مخطوط .

(٥) ابن حيون : المرجع السابق ورقة ٨٧ .

على نفسه بمحسّن نواياهم تلك حين نهى - قبيل موته - عن قتالهم من بعده لأن « من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فأدركه » (١) فسكّأته بذلك لم يطمئن على إيمانهم وإنما اكتفى بمهاجمة طريقة تنفيذهم لما أرادوا (٢) . ومن هنا يبطل الزعم بأن الحوارج هراطقة ، وأفعو ، ما يمكن أن يؤخذ عليهم تشددهم وتطرفهم في معتقداتهم (٣) .

أما وقد اتهمنا إلى أن نشأة الجماعة السياسية في الإسلام انبثقت من الخلاف الفقهي الديني (٤) ؟ فإن ظهور الحوارج لم يشذ عن تلك القاعدة ، وحسبنا أن قضية التحكيم بين علي ومعاوية - وهي التي أسفرت ضمن ما أسفرت عن ظهور الحوارج كانت تسكن في مسألة فقهية دينية بحثة هي هل يجوز تحكيم البشر في أحقية إمام معترف به وببيئته ؟ أم لا ؟ . كانت إجابة أولئك الذين عرفوا بالحوارج فيما بعد بالنفي بطبيعة الحال ؛ ومن ثم انشقوا على علي وكفروه بنفس الدرجة التي كفروا بها عدوه معاوية ، فكانت عداوتهم للخصمين المتنازعين قائمة على أساس خروجهما عن جادة الشريعة ، وكان ظهورهم على مسرح الأحداث للمودة بالحق إلى نصابه .

ويتفق الدارسون على صعوبة البحث في تتبع نشأة الحوارج (٥) ، مؤرخ تلك الحقبة « ممتحن أعسر الامتحان وأحقه » (٦) . ويمكن الصعوبة ليس في ندوة

(١) سهير القلماوى : أدب الحوارج ص ٣٢ .

(٢) نفسه ص ٣٣ .

(٣) Masqueray : Op. Cit. p. xv, Gibb : Op. cit. p. 110.

(٤) فلموزن . تاريخ الدولة العربية ص ١ .

(٥) سهير القلماوى : أدب الحوارج ، المقدمة ، ص ٥ .

(٦) طه حسين : الفتنة الكبرى ج ٢ ص ٩٢ .

للمعلومات وشحنها ، إنما في وفرتها واضطرابها ، وللمرء بوسمه أن يدين من يشاء ويرى من يشاء وله في الحالتين من القرائن والأدلة ما يعينه . وهذا في الواقع يعكس حقيقة هامة هي إيمان أطراف النزاع جميعا بمدالة مواقفها ، وتقانيها في النضال للوصول إلى مراميها . فلي بن أبي طالب لم يخامر الشك في أحقية للخلافة وجدارته بها بمد وفاة النبي مباشرة ، واستند شيعته على كثير من الأحاديث النبوية لإثبات هذا « الحق للشروع » (١) ، ولا يخفى أنه كان آخر من بايع أبا بكر من كبار الصحابة ، كما سكت على مفض حين آلت الخلافة إلى عمر بمد أبي بكر ، وفاض كيله حين تحولت عنه إلى عثمان بمد عمر (٢) ، فخرج عن صمته ، وضرب بسهم في الفتنة التي

(١) أنظر : ابن حيون : أساس التأويل الباطني ، ورفات ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، مخطوط .

(٢) لاناخذ بما قاله الدكتور طه حسين بأن عليا بايع أبا بكر مخلصا . (انظر : افتنه الكبرى ج ١ ص ١٥٢) . فقد ذكر في مكان آخر أنه « كان مبارضا للخلفاء الثلاثة » (انظر : نفس المصدر ص ١٥٣) . مصداق ذلك ما جاء بإحدى خطبه « ٠٠٠ بعد وفاة الرسول ما كان باقي في روعي ولا يخطر ببال أن العرب تبدل هذا الأمر عني ؛ فمأراعي إلا إقبال الناس على أبي بكر ؛ فأمسكت يدي ورأيت أنني أحق بمقام محمد في الناس ممن تولى الأمور ٠٠٠ فلما احتضر أبو بكر بعث إلى هرفولاه ، فسمما وأطعنا وبأينا وناصحنا ٠٠٠ فلما احتضر ؛ قلت في نفسي ليس يصرف هذا الأمر عني ؛ فجعل الأمر شورى وجعلني سادس ستة ؛ فخشوا إن وليت عليهم أن لا يكون لهم في هذا الأمر نصيب ، فبايعوا اجتماع رجل واحد حتى صرفوا الأمر عني لثمان ، فأخرجونا منها رجاء أن يتداولوها حين يشؤا أن يتداولوها ، ثم قالوا لي هلم بايع عثمان ولا جاهدناك ، فبايعت مستكرها ، وصيرت محتسبا ٠٠٠ »

رام ج : ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٥٠ .

أدت إلى مقتل عثمان (١) ، وإحداث صدع في كيان الإسلام (٢) . أما معاوية فقد أخذ على كاهله عبء الثأر لعثمان ، متخذاً من تلك الدعوى تكتة لتبرير مطامعه في الخلافة . ومهما قيل حول صدق نواياه في طلب الموادة لو أن علياً سلم له قتلة عثمان (٣) ، فلأنك في تطلماته المريضة خاصة بعد أن آلت إلى قيادة العثمانية بعدمقتل طلحة والزبير ، وهو أمر أذكي إصراره على مطاولة على ومناسسته على الخلافة إلى آلت إليه بالفعل « منالبة » على حد قول ابن حزم (٤) . وأبان النزاع بين علي ومعاوية برز الحوار كحزب سياسي منشق رافض لدعوى الشيعة والعثمانية ، فكان خروجهم حسباً معتقدوا طلباً للحق واحتساباً لله .

(١) انظر في ذلك ما ذكره نصر بن مزاحم في كتابه : أخبار صفين ص ١٠٥ ، ابن قتية : الإمامة والسياسة ج ١ ص ٧٦ ، ٧٧ ، ١٠٤ .

(٢) افرقت الجماعة الإسلامية بعد مقتل عثمان — حسبما ذكر مؤرخ مجهول — إلى فرقتين ثلاث : « فرقة قتله » وأخرى وقفت عنه وعن قتله ؛ وثالثة طالبت بدمه ؛ فالفرقة الثالثة له تتمثل في علي بن أبي طالب وأصحابه من أهل المدينة والمهاجرين والأنصار ، والواقفة عنه تضم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد ؛ أما المطالبة بدمه فمن أقطابها طلحة والزبير ومعاوية . وقد عرفت الفرق الأولى « بأهل الاستقامة » والثانية « بالشكك » ، والثالثة « بالعثمانية » .

انظر : قطعة من ككتاب في الأديان والفرق ؛ ورقة ٢٧ ؛ مخطوط .

(٣) نصر بن مزاحم : أخبار صفين ص ١٠٣ .

وفي خطاب من معاوية إلى علي في هذا الصدد قال معاوية « إن الخليفة عثمان قتل منك في الحلة وأنت تسم من داره لهيعة فلا تدفع عنه لقول ولا فعل ، وأقسم بالله لو قت في أمره مقاماً صادقاً فنهنت عنه ما عدل بك من قبلنا من الناس أحداً وأخرى وأنت بهما ظنيت ؛ أيواؤك قتلت ؛ فهم عضدك ويدك وأنصارك وبطانتك . وبلغنا أنك تبتهل من دمه ، فإن كنت صادقاً فأمسكنا من قتلة تقتلهم به ؛ ونحن أسرع الناس إليك ، وإلا فليس لك ولا لأصحابك عندنا إلا السيف » انظر : الطبري : ج ٥ ص ١٦ ، الدينوري : ص ١٦٢ ، ابن الأثير : ج ٣ ص ١١٥ .

(٤) قط المروس ص ٥٦ .

وبديهي — حسبما صاف القول — أن يبادر كل حزب إلى تبرير موقفه ودعمه
بقرائن وأدلة مستوحاة من القرآن والسنة ، صريحة أو مؤولة . وبديهي أيضاً أن
يمسك مؤرخو كل طائفة إلى الانحياز والتعصب الكامل لطائفتها ، فالمصادر السنية
والشيعية على السواء منحازة في جانب على طول الخط في عرض حوادث صفين
المثيرة ، ولدينا في هذا الصدد روايتان هامتان إحداهما لأبي مخنف والآخرى لنصر
ابن مزاحم اللقري . ونعتقد أن وجهة النظر الأموية درست وذوت حين دون
التاريخ في العصر العباسي ، وتقف على آثار منها عند البلاذري (١) . وإذا كانت
المصادر السنية والشيعية تحمل على بني أمية وتزيف أخبارهم ، فإن حملتها على الخوارج
أشد وأنكى ، فهم كفرة مارقون يجب بترهم ، وعليهم تقع مسؤولية خذلان على
يارغامة على قبول التحكيم ثم معاودة إرغامه على التنصل منه (٢) . ومن الطبيعي
أن تنف على روايات معاصرة تحمل وجهة نظر الخوارج ، رغم وفرة ماصفوه من
توالمف حوت غنائهم وسيرهم وأخبارهم وطبقات مشاهيرهم ، وهو ما ذكره ابن
النديم في الفهرست ، فقد أيدت كتب الخوارج وأحرقت على أيدي أعدائهم ،
وما وصلنا من روايات متأخرة عن وقائع صفين لمؤرخين من الخوارج تنقسم
بطابع التحيز الشديد لأجدادهم ممن عرفوا « بالحكمة الأولى » ، فتلقى تبعة
التحكيم وما أسفر عنه على كاهل على وتندد بضعة وسوء رأيه . وهكذا نجد
اضطراباً واضحاً وخطأ شديداً يكتنف تاريخ حادثة خطيرة في صدر الإسلام ؛ إلا
وهي حادثة التحكيم (٣) .

ولما كان ظهور الخوارج مرتبطاً بتلك الحادثة ، ومحاولة الكشف عن أصولهم

(١) فلهووزن : تاريخ الدولة العربية ، المقدمة ، ص ٤ ، ذ .

(٢) انظر الناصري : منهج الممارج لأخبار الخوارج ، ورقة ٦٢٥ ، مخطوط .

(٣) فلهووزن . تاريخ الدولة العربية ص ٨٣ .

يلزم الباحث بالتعرض لمواقف أشخاص لهم في نفوس المسلمين منزلة خاصة — وهو أمر يزيد البحث صعوبة — وجب أن نحتط منها بقوامه النصوص وراء الحقيقة في خضم الروايات للتمارضة بعض النظر عن تلك المسألة الخاصة لأولئك الذين شاركوا في قضية التحكيم، ذلك أن «النتائج التي ترتبت عليها — كما يعتقد البعض»^(١) أكبر وأوسع وأضخم من هؤلاء الأشخاص .

وقضية التحكيم كانت ولا تزال مثار جدل بين المؤرخين ، قدامى ومحدثين ، وقصتها متواترة في كافة التواريخ الخاصة بصدر الإسلام . وما ينبغي إبرازه أولاً تشكيك بعض النقاد في روايتي أبي عفيف والنقري اللذين شاعتا في تاريخ الطبري ومن أخذ عنه . فابن عربي (٢) يقول في هذا الصدر «... هذا كله كذب صراح ، وإنما هو شيء اخترعته المبتدعة ووضعتة التاريخية للملوك » . كما نقف على نزعة التشكيك تلك في الجدل والمساجلات الكلامية التي كانت تجري — لزمان طويل — بين متكلمي الخوارج والشيعة (٣) . ونقش الاتجاه نجده عن بعض المحدثين من أمثال يوليوس فلهوزن (٤) وفيليب حي (٥) .

ومجمل القصة بصورتها الشاملة في الرواية المراقية ، أن الخلاف بين علي ومناوية تفاقم حتى قامت الحرب بينهما في صيف سنة ٤٣٧ هـ ، تلك التي بدأت بإبرازات بين أنجاد للمسكرين

(١) انظر : طه حسين : الفتنة الكبرى ج ١ ص ٤٩ .

(٢) القوامم والعوامم ورقة ١٠٨ ، مخطوط .

(٣) انظر : مجهول . معاوية بين شيعة وعلماء في هذا الشيلين أبي بكر نوعر وشأن المسلمين ، وما قيل في ذلك ، ورقة ٨ مخطوط .

(٤) انظر : مقدمة كتابه عن الخوارج والشيعة .

(٥) انظر : History of the Arabs, P. 181.

كان الظفر فيها لرجال على . سم اندلعت الحرب الشاملة والتعم جيشاً شام والعراق ، وكانت الغلبة أيضاً للمراقبين حتى صار النصر للمثنائ وشيسكا . غير أن حيلة أحكمهم عمرو بن العاص وأقرها معاوية غيرت مسار الأحداث ، إذ أمر برفع المصاحف على أسنة الرماح تحكيماً لسكتاب الله في الظاهر وبثا للفرقة في جيش العراق في الباطن . وقد فطن على الحكيدة وحذر عسكره من مغبتها ، إلا أنه غلب على أمره ورضخ لمشيشة جماعة القراء الذين صاروا فيما بعد زعماء الخوارج ، فقبل التحكيم على مضض . كما أرغم أيضاً على اختيار أبي موسى الأشعري ممثلاً له في مفاوضة عمرو بن العاص . وكان ما كان من خدعة عمرو لأبي موسى وخلع على وتثبيت معاوية ، وخروج الخوارج . والرواية تدافع عن موقف على وتظهره بطلا درامياً مخذولاً أسقط في يده أمام ضغوط مصدرها خيرة رجاله الذين أرغموه على قبول التحكيم ، ثم عادوا يطالبونه بنكته وهم الذين عرفوا بالخوارج ، ثم القبايل اليمنية وزعيمها الأشعث ابن قيس السكندی الذي خيره بين قبول التحكيم وبين تسليمه لخصمه والخروج عليه (١) .

(١٥٥)

أما مصادر الخوارج (٢) — وهي متأخرة نسبياً — فتلقى باللوم على على ، وتتهمه بالتفريط في حقه تحت تأثير من الأشعث بن قيس ، وتبرر خروج الخوارج

(١) راجع : نصر بن مزاحم : ص ٢٥٠ وما بعدها ، الطبري : ج ٥ ص ١٦ وما بعدها ، السعدي : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠٠ وما بعدها ، الدينوري : ص ١٨٩ وما بعدها ، الشهرستاني : ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، أبو الفدا : ج ١ ص ١٨٠ ، ابن عبدربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٣٤٨ وما بعدها ، ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ١٢٦ وما بعدها ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٧٤ وما بعدها ، الناصري : ورقة ٢٢١ وما بعدها .

(٢) انظر : الشماخي : السير ص ٤٦ وما بعدها ، البرادى : الجواهر المنتقاة ، ورقة ٦ ، مخطوط ، الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ٢٨٩ وما بعدها ، ديبوز : المغرب الكبير ج ١ ص ٣٤٠ وما بعدها .

بقبوله تحكيم البشرى فى حق من حقوقه الأمر الذى يعنى الشك فى إمامته ، ومن هنا عمدوا إلى اختيار إمام منهم هو الله بن وهب الراسبي بعد رفض على إعلان التوبة . فكثيرا عن إنعسه . ومن مؤرخى الخوارج (١) من ذكر أن عليا استجاب لطلب التوبة ، ثم عاد فنكت تحت تهديد الأشعث . ويخرج بعض الدارسين (٢) من ذلك بأن لو اطاؤا بين الأشعث وأهل الشام لبث الفرقة فى معسكر على وحرمانه من خيرة رجاله الذين صار واخوارج . وعموما ، تلخص وجهة النظر الخارجية فى إلغاء مسئولية التحكيم على على ، ودفع التهمة عن الخوارج الذين ماخرجوا عليه لإلغائه إياه . ومن الغريب أن نجد فى بعض المصادر غير الخارجية — وبعضها شيعى — من النصوص مايدلل على صحة وجهة النظر الخارجية ، فالنوبختي (٣) يقول « خرج الخوارج على على بعد تحكيم الحكيمين » « لتفريطه فى حق من حقوق الرعية على الإمام وهو سد الثور ، فاتهموه بتفريطه فى ثمر الشام بتحكيم الحكيمين » على حد قول ابن طباطبا (٤) . وتتلخص عند الرازي (٥) نفس حجة الخوارج فى الخروج وهى أن قبول على التحكيم يعنى بطلان حقه فى الإمامة . كما نجد عند اللبرد (٦) ما ذكره مؤرخو الخوارج عن مسألة التوبة وقبول على إياها تكفيرا عن إنعسه يقبوله التحكيم .

والواقع أن اختلاف الروايات وتضاربها لا ينهض دليلا على الزعم بأن حادثة التحكيم وهم تاريخى محض ، حقيقة نسج حولها من الروايات ما جعل خيوطها تزداد

(١) السماخى : ص ٤٩ .

(٢) Dozy: op. cit p. 37 ، طه حسين : الفتنة الكبرى ج ٢ ص ٨١ ، ٨٢ .

(٣) فرق الشيعة ص ٢٦ .

(٤) الفخرى فى الأدب السلطانية ص ٨٢ .

(٥) اعتقادات فرق المسلمين ص ٤٦ .

(٦) الكامل فى اللغة والأدب ج ٣ ص ٨٩٢ .

مضطراباً ، ولكن دراسة تلك الرويات وتحليلها مع إعمال العقل والمنطق قسرين
بأن يزيع كثيراً من الغموض ، ويكشف عن بعض الحقائق .

وأولى تلك الحقائق أن القتال في صفين لم يجر في صالح أهل العراق طي طول الخط
كما تزعم الرواية المراقية ، بل كانت الحرب سجلاً ، وإن فاق جيش الشام جيش
العراق تماسكاً ونظاماً وهو أمر يرجح كفته فيما لو استمر القتال . فأهل العراق لم
يكن ولاؤهم لنصرة على وحاسمهم لفضيته غلصاً ؛ فمنهم من حاربه من قبل في موقعة
الجل ثم أرغموا طي مشايته بعد مصرع طلحة والزبير ، وجلهم من أهل البصرة ،
أما الكوفيون ، فقد سئوا القتال من جراء ما لاقوا من أهوال في حرب الجبل .
وهو أمر لم ينب عن فطنة عمرو بن الماص حين حث جند الشام طي طلب النصر
حيث قال « .. إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم وفلوا أحدهم ، ثم
إن أهل البصرة مخالفون لى ، قد وزمهم وقتلهم ، وقد تفانت صناديدهم وصناديد
أهل الكوفة يوم الجبل (١) » . معنى ذلك أن « جيش طي كان يضم عثمانية
لا يقانلون معه عن رضى وصدق بل كان منهم الخلفى والدخول ، (٢) أما جيش
الشام ، فكان يدين لماوية بالولاء ويطيعه طاعة رجل واحد إيماناً بمدالة قضية
النار لمعان (٣) . ولا غرو ، فحين التجم الجيشان في صفين انكشف أهل العراق
« حتى لم يبق منهم إلا ابن بديل في مائتين أو ثلاثمائة من القراء [الخوارج فيما بعد]
تجدد أئند بعضهم ظهره إلى بعض (٤) » واستأنوا في القتال . وقد هال انكسار

(١) الطبرى : ج ٤ ص ٥٦٣ .

(٢) طه حسين : الفتنة الكبرى ج ٢ ص ٨١ .

(٣) فلهرزن : تاريخ الدولة العربية ص ٥٧ .

(٤) الطبرى : ج ٥ ص ١٨ .

جيش على رجلا كالأخف بن قيس حيث صاح مذعوراً « هليكت العرب (١) » ،
إذ بلغ عدد القتلى سبعين ألفاً من المسكرين جلمهم من جيش على (٢) .

والحقيقة الثانية أن الدعوة للتحكيم صادفت هوى في نفوس الأكرية من جيش
على ، بينما رفضت الأقلية مبدأ التحكيم من أساسه . والذي يؤكد أن الأقلية الرافضة
كانت تشمل جماعة القراء التي أصرت على مواصلة القتال حتى النصر أو الموت دونه ،
وهؤلاء القراء هم الذين صاروا خوارج بعد استجابة على لرأى الأكرية (٣) وقبوله
التحكيم . وسواء أكان قبول الأكرية خذلاناً وضمناً أو عن نية صادقة (٤) في
طلب السلم والمواذعة أو نتيجة الشك في موقف على وقبول التحكيم كسراً
للشك باليقين (٥) ، فليهم تقع مسئولية إرغام على على الرضوخ لمشيئتهم صاغراً (٦) .

(١) نصير بن مزاحم : ص ٢٠٥ .

(٢) ابن الخطيب : رقم الخال في نظم الدول ص ١١ .

(٣) السعدي : ج ٢ ص ٤٠١ .

(٤) كانت جبهة كبيرة من المقاتلة تحبذ وقف القتال حقناً لدماء المسلمين ؛ منهم الخارق

ابن الصباح الحميري الذي قال :

أعوذ بالله الذي قد أحتجب	بالنور والسم الطباقي والمحجب
أني ذوات الدين منا والمحجب	لأبسكين عيني على من قد ذهب
ليس كمثل الله شيء يرتب	بارب لاهلك أعلام العرب

انظر نصير بن مزاحم : ١٦٣ .

(٥) يتضح موقف جماعة الشكك من الرواية الآتية « ... جاء رجل إلى عمار بن ياسر
أثناء المعركة قائلاً : لي خرجت من أهلي مستعراً في الحق الذي نحن عليه لأشك في ضلالة
هؤلاء القوم وأنهم على الباطل ، فلم أر على ذلك مستعراً حتى كانت لي في هذه صباح يومنا هذا ؛ فقدم
مناديتنا شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ونادى بالصلاة ، فنادى مناديتهم بمثل ذلك ، ثم
أقيمت الصلاة فصلينا صلاة واحدة ودعونا دعوة واحدة وتلونا كتاباً واحداً ؛ فادركني الشك . . . » .

انظر : نصير بن مزاحم : ص ١٦٦ .

(٦) ترى الدكتور دة سهر القلماوي أن علياً رضى بالتحكيم حقناً لدماء ابنه الحسن .

والحسين . انظر : أدب الخوارج ص ١٩ .

ولا تقع تلك المسئولية البتة على الأقلية كما زعمت الرواية العراقية ، فما خرجت الأقلية على طي إلا لقبول التحكيم ورفض استئناف القتال . كانت جماعة القراء الخارجة مدفوعة في رفضها التحكيم بسبب سياسي ، فقد رأوا في استمرار القتال حتى الاستشهاد خيراً من وقوعهم تحت طائلة عقاب معاوية لو جاءت نتيجة التحكيم في صالحه باعتبارهم ضالعين في مقتل عثمان وأكثر جند على حماسة النصرته (١) . وتمة دافع آخر ديني ، إذ رأى القراء المستمسكون بأهداب الشريعة في تحكيم الرجال في حق منعه الله علياً بعد بيعته بالخلافة خروجاً على الدين وكفراً بنعمة الله ، ومن ثم وجبت توبة على كشرط لمودتهم إليسه ، فلما رفض إجابتهم خرجوا عليه نهائياً .

ولدنيا من النصوص ما ينفي عن الحوارج شبهة إجبار على بن أبي طالب على قبول التحكيم ، وما يؤكد خروجهم عليه لرفضهم مبدءاً التحكيم من أساسه . ذكر ابن حيون — وهو مؤرخ شيعي — في كتابه « شرح الأخبار » نقلاً عن يحيى بن يحيى بن آدم عن حبيب بن أبي ثابت أحد رجال صفين « .. لما دعى عمرو إلى التحكيم ... ومال أكثر الناس إلى اللوادة ، جاءت الحوارج ونحن نسميهم براءة القراء واسيافهم على هواتقهم ، فقالوا يا أمير المؤمنين أئتمنا أن نسير بأسيافنا إلى هؤلاء فنقاتلهم ويحكم الله بيننا وبينهم .. » (٢) ويقول ابن قتيبة (٣) « .. لما سمع على قول الأشعث ورأى حال الناس قيل القضية وأجاب إلى الصالح ، قام إلى على أناس وهم القراء منهم عبد الله بن وهب الراسبي في أناس كثير قد اختلطوا

(١) Muir : op. cit. p. 281. ولعل في إنكار عمار بن ياسر التحكيم

وإقدامه على الموت بطريقة انتحارية ما يرجح ذلك . أنظر : البرادى : ورقة ٦ .

(٢) ابن حيون : شرح الأخبار ورقة ١٠٣ ، مخطوط .

(٣) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٢٠٦ .

سيوفهم ووضعوها على عواتقهم ، فقالوا لعل اتق الله فإنك قد أعطيت المهد وأخذته منا لنفنين عدونا أو يفيء إلى أمر الله ، وإنا نراك قد ركنت إلى أمر فيه الفرقة والمعصية لله والدل في الدنيا ، فانهم بنا إلى عدونا فلنحتكم إلى الله بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين . . . » ويقول مؤرخ مجهول (١) « الخوارج هم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب لما حكم الحكيم ، وذلك أنهم عاتبوه ومنعوه واحتجوا عليه ، فتاب وأظهر لهم توبته ، فبايعوه بمد التوبة ووازره وقبلوا منه ، ثم خرج عن قولهم إلى التحكيم بمد التوبة والرجمة . . . » وثمة قرآن أخرى تؤكد ما نذهب إليه ، منها رفض ابن عباس تلبية طلب علي في قتال الخوارج (٢) إيماناً منه بصحة موقفهم ، فاكتمى بدعوتهم « لطاعة آل البيت (٣) » . بل نجد في كتاب علي إلى أهل النهران بعد إعلان نتيجة التحكيم ما ينم عن ندمه واعتذاره واعرترافه باستقامة رأيهم ، إذ ورد به « . . . فهللوا نمطكم الرضى ونرجع إلى الأمر الأول الذي طلبتموه مني ونقاتل عدونا وعدوكم حتى يحكم الله بيننا والله خير الحاكمين » (٤) .

ولما كان الخوارج — حقاً — براء من تهمة إجبار علي على قبول التحكيم ، وإذا كان علي في خطبه في أهل العراق يبدي غيظاً وحنقاً عليهم لأنه قبل التحكيم كارهاً ، ولم يرض به إلا إغاثاً ورضوخاً لمشيئتهم ، وجب أن نبحث عن دور تلك الطغمة من أهل العراق التي كانت وراء إذعائه ورضوخه .

والصادر جميعاً — سنية وشيعية وخارجية — تشير بأصابع الاتهام إلى قبائل

(١) قطعة من كتاب في الأدبان والفرق ورقة ٩٦ ، مخطوط .

(٢) مجهول : كشف الغمة لأخبار الأمة ورقة ٢٨٧ ، مخطوط .

(٣) ابن حيون : شرح الأخبار ورقة ٨٧ .

(٤) كشف الغمة ورقة ٢٨٠ .

كده وزعيمها الأشعث بن قيس . فؤرخوا السنة يقرنون دوره بدور الخوارج في الدعوة للتحكيم والحض على قبوله واختيار أبي موسى الأشعري على كره من طي اعتمادا على نقل مكاتبه باعتباره زعيما لليمنية في جيش العراق ^(١) ، حتى ليذكر

للسمودي ^(٢) أن عليا اهتم الأشعث صراحة بأنه صاحب اليد الطولى في مهزلة التحكيم . وفي نفس الاتجاه ينساق المؤرخونه فيصورونه معول هدم وعامل فرقة في معسكر على ، تحت تهديداته تخلى على عن حقه الشرعى في الخلافة بقبوله ذكر اسمه مجرداً من لقب « أمير المؤمنين » في وثيقة التحكيم ^(٣) ، وهو الذى أوقع بين طي وبين من عرفوا بالخوارج ، فحرضه على قتالهم واستئصال شأقتهم بالنهروان كشرط المضى معه بجنده اليمنية لقتال أهل الشام ^(٤) وهو الذى خذل علياً بعد النهروان حين أزمع قتال أهل الشام ، فانسحب بجنده إلى الكوفة متذرعاً بالحاجة إلى الراحة والاستعداد قبل المواجهة الحاسمة ^(٥) .

ومؤرخو الشيعة ينحون نفس النحو مبرزين دوراً مخرباً للأشعث في معسكر على منذ البداية ، بلغ حد الأمر على حياته ^(٦) ، وقيل أنه تواطأ مع ابن ملجم في المؤامرة التى انتهت بقتله ^(٧) .

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ٢ من ١٨٧ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ من ٤١٢ .

(٣) ابن الأثير : ج ٣ من ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٤) نفسه من ١٣٧ .

(٥) نفسه من ١٣٩ .

(٦) قيل أن الأشعث دخل فأغلظ له على ففرض له الإيـمـتـ بان يقتك به . عن مزيد بن

التفصيلات انظر المبرد : السكامل ج ٣ من ٩٨٣ .

(٧) الأصمـهـانى : مقالـ الطالبيـن من ٢١ .

والرواية الخارجية تقول بتواطؤ مسبق بين الأشعث ومعاوية القتي كان يمدحه
 ويمنيه (١) ، فكان لذلك أداة له في بث الفرقة في جيش علي ، وحسبه نجاحاً في ذلك
 تحريض علي على قتال الخوارج والوقعة بهم في النهروان وحرمانه من خيرة جنده
 وأكثرهم إخلاصاً لقضيته (٢) .

ومث الدارسين المحدثين من أكد دور الأشعث الشائن هذا ، فدوزي (٣)
 أطلق عليه « الخائن الأعظم » على أساس أن اتفاقاً تم بينه وبين عمرو بن العاص
 بقصد خذلان علي وإحداث صدع في جيشه ، والمكتور طه حسين (٤) يرى أن
 « للؤامرة قد أحكمها الأشعث ما كر أهل العراق وعمرو بن العاص ما كر أهل
 الشام وداهيتهم ففى لذلك أثبار بين طلاب الدنيا من أصحاب علي
 وأصحاب معاوية » .

وإذا كانت تلك الروايات جميعاً تدين الأشعث وتقدمه بالخيانة ، فلا ندم من
 المؤرخين من دافع عنه وبرر موقفه ، فالدينوري (٥) ذكر أن الأشعث ندم من للشحك
 عن نية صادقة في حقن دماء المسلمين ، ذلك أن استمرار القتال كان يبنى « بوار
 العرب وصنعة الحرمات » على حشد قول الأشعث نفسه . ويرى الدينوري أن
 أن الأشعث كان لذلك أول من فكر في وقف القتال ، وأن فكرته صادفت هوى
 في نفس معاوية ، فأمن قول الأشعث خشية — طي « ذراري أهل الشام من الروم
 وذراري أهل العراق من دهاقين فارس » عن نية صادقة كذلك ، وهذا قد دعى
 إلى إشهار للمصاحف على أطراف القنا داعياً إلى تحكيم كتاب الله ، فاحتجاب على

(١) الشماخي : ص ٤٧ ، ٤٨ ، البرادى : ورقة ٦٠ .

(٢) البرادى : ص ٦٩ .

(٣) Spanish Islam. p. 37.

(٤) الفتنة الكبرى ص ٢٠ ، ٨١ ، ٨٢ .

(٥) الأخبار الطوال ص ١٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ .

للدعوة عن رضى واقتناع؛ فكان الدينورى لا يرى في الموقف برمته شيئاً من تدمير أو مكائد . وهى رؤيا أخذها يوليوس فلهوزن (١) حيث قال « ... فالبحث عن خونة لاجدوى له ولا عمل » فهو يفند مزاعم الحيانة والتواطؤ على أساس انتفاء دوافعها وأسبابها .

والقول الفصل في موقف الأشعث — أمام تضارب الروايات — تنلسه بالبحث في مقومات شخصية ، فالذى يستعرض حياته ، ويستقرئ مواقفه قبل صفين يمكنه — دون لائى — أن يقف على مكانن الحيانة في طبعه ، رغم ما قيل عن إخلاصه للى إبان معركة صفين وصدق عزمه على حقن دماء المسلمين عن طريق الدعوة للتحكيم . فمن مظاهر الولاء المزعوم ، وقفه البطولى حين ألقى جند الشام عن موارد المياه بصفين حين عولوا حرمان جيش من السقى (٢) والراجع — فيما نعتقد — أنه كان مدفوعاً لذلك بالحفاظ على حياته وحياة رجاله من الجنة أكثر من إخلاصه للى وقضيته وما قيل عن رفضه الأبي الانضمام لمعاوية حين ألح في استمالته (٣) ، يفسر في ضوء الخصومة التقليدية بين قومه من الجنة وبين القيسية أشياح معاوية . كان الأشعث « رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن (٤) » يتطلع إلى مكان الصدارة عن طريق

(١) الخوارج والشيعة ص ٦ — ص ١٣ .

(٢) نصر بن مزاحم : ص ٨٧ ، الدينورى : ص ١٦٩ . وتذكر الرواية أن الأشعث قال للى : « يا أمير المؤمنين ، أئتمنا القوم ماء الفرات وأنت فينا ومعنا السيوف ، خل عنا وعن القوم فوالله لا نرجع حتى نرده أو نموت . فقال على : ذلك إليك ، فرجم الأشعث فادى في الناس : من كان يريد الموت فعاده الصبح ، فأنى ناهض إلى الماء . فأناه من ليلة إثنى عشر ألف واصل ، فشد عليه سلاحه مرتجزاً :

ميامنا اليوم بياض الصبح هل يصلح الزاد بغير ملح
لا لا وأمر بغير نصح دبوا إلى القوم بطن روج
فلما أصبح ، زاحف أبا الأعور فاقتلوا ، وصددهم الأشعث والأشعث فنيا أبا الأعور
وأصجابه عن الشرية وصارت في أيديهما . اضر : نصر بن مزاحم : ص ٨٧ .

(٣) نفسه ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٤) نفسه ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

الرهان على الجواد الرابع ، والوقوف قبيل صدين كان ينبغي بارتفاع أسهم على خاصة بعد انتصاره في حرب الجمل . فالأشعث من ثم كان من أولئك النفر الطموحين الذين يذبلون الاعتيارات القبلية والأعجاد الشخصية على الحماس للقضايا الدينية والإخلاص في نصرة أصحابها .

وسجل حياة الأشعث ينطق بما يؤيد ذلك ويؤكد كده ، فقد أسلم في عهد الرسول قمرًا حين أعيته الحيلة والقدرة على مناهضة تيار الإسلام الجارف ، ثم ارتد بعد وفاته وألب قومه على أبي بكر وورثهم في حروب الردة ، لكن أذهن من جديد فعلمنا قوته التي قبلها أبو بكر على من (١) . وفي خلافة عمر ذوى شأنه أمام هيئة عمر وسطوته ، ثم عاد للظهور منتهاضه عنان ، فزوج ابنته لعمر بن عثمان ، وظفر بولاية أذربيجان (٢) . ولما قتل عثمان وببيع على بالخلافة عزل عن إمارته فوضع للأمر كارها ، مضمراً لملى شراً مبيتاً . وكان رضوخه — كما قلنا — مداراة لملى الذى بدأ نجمه فى الأفق صاهداً (٣) ، فلما بدأ فى الأنفول فترت همته فى نصرتيه ، وطلق يظهر ما أضمر من اعتقاد . ومع أننا نشارك فلموزن (٤) الراى فى استبعاد تدبير لعبة التعهيكيم مع عمرو بن العاص ، إلا أنه لا يمكن الشك فى دوره الفعال فى الدعوة له والحض عليه والترويج له . بين القبائل منتهاض فى ذلك موجات الشك ومشاعر الهلع ودعاوى الخذلان جنباً إلى جنب مع صدق النوايا فى إثارة العافية والرغبات الحقيقية فى وضع حد للفتنة الكبرى . وكلها أمور جالت بصدور عسكر على ، انتهزها الأشعث فى تأليب أكرثية الجيش على على لوقف القتال . وهكذا أسهم — سواء عن حسن نية

(١) قيل أن أباً بكر ندم على ذلك لأنه كان يرى فى الأشعث رجلاً لا يرى غيا ولا شراً إلا أعان عليه . ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ١٥ ص ٣٢ .

(٢) نفسه ٢٥ ص ١٤٩ .

(٣) نصر بن مزاحم : ص ١٤ .

(٤) الحوارج والشيعة ص ٧ ، ٨ .

أو سوء قصد — في إقرار مبدأ التحكيم وإرغام عليّ على الأخذ به ، وكبح جماح
القلة المخالصة الراضة له واستئصال شأقتها . فيما بمسد في النهر وان ، فكان في النهاية
ممول هدم في قوة جيش العراق .

الخلاصة — أن عوامل الضعف والفرقة في ممسك عليّ أفرزت نتائجها الطبيعية
وما كان بوسع عليّ وقف تيارها ، فقد أفادت من قبضته زمام الموقف حين غلبته
الأكثرية وأرغمته على التمريط في حقه الشرعي في الإمامة بقبول التحكيم .

الذي نستخلصه في النهاية ، براءة انقراء الدين صاروا خوارج من مسئولية
التحكيم انطلاقاً من موقف سياسي وديني في آن واحد ، جعلهم يشعرون رفضاً له
لارغبة فيه .

ومما يؤكد ذلك أن أول شعار نادوا به هو « لاحكم إلّا الله » ، فقد قيل (١) إن
« رجلاً من ربيعة من بني يشكر كان مع عليّ بصديق ، فلما رأى اتفاق الفريقين على
الحكمين استوى على فرسه وحمل على أصحاب معاوية وقتل منهم رجلاً ، وعلى
أصحاب عليّ وقتل منهم رجلاً ، ثم قتل أصحاب عليّ حتى قتل رجل من همدان . »
وقيل (٢) إن أول من حكم كان عروة بن أدية الذي شد بسيفه على الأشعث ابن
قيس فأخطأه حين كان الأشعث يقرأ وثيقة التحكيم على قبائل تميم . وذكر (٣) أن
آخرين من غزاة هما جعد ومعدان — صاحبا في وجه الأشعث « لاحكم إلّا الله »
وضرباه فأخطأه ، ثم شد على أهل الشام حتى قتلوا . وفي قول (٤) رابع أن أول من
حكم هو سعيد بن محارب من قيس عيلان . وفي رواية أخيرة (٥) أن الحجاج ابن
عبدالله المعروف بالبرك كان أول المحكمين .

(١) البغدادى : ص ٧٥ ، الإسفرائينى ص ٤٦ .

(٢) الطبرى : ص ٥٥ ، السعوى : ص ٢٠٤ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٤١٠ .

(٣) الدينورى : ص ١٩٢ .

(٤) المبرد : ص ٣٠٩ .

(٥) نفسه ص ٩١٧ .

ومهما اختلفت الروايات فالمحصلة النهائية أن المحكمة أو الخوارج ارتبطوا بهم
يرفض التحكيم وليس بالدعوة له كما زعمت الرواية المراقية . وهذا محض اجتهاد
متواضع في قضية أنارت الخلاف بين القداى والمحدثين ، وخفيت حقيقتها حتى على
أولئك الذين عاصروها ، بل كثر الجدل حولها بين من عايشوها ، وهو جدل
دار بين تبادل « السباب والشتائم والضرب بالمقارع ونعال السيوف بين الرجل وابنه
« الأخ وشقيقه » على حد قول للمعوى (١)

(١) مروج الذهب > ٢ ص ٣٠٥ .

